مشهد انتخابي يخلو من فجوة الأغلبية الصامتة

أحمد الحبيشي

من حق اليمنيين أن يسعدوا ويفخروا في آنٍ واحد بالتطور الذي تشهده التحولات الديمقراطية في اليمن لجهة ما تنفرد به من تميز وقدرة متسارعة على الانجاز في ظروف بالغة التعقيد.

بعض هذه الظروف يعود إلى أن اليمن جزء من بيئة إقليمية تتجاوب ببطء وحذر شديدين مع تحديات الإصلاح السياسي ورياح التغيير الديمقراطي ، فيما يعود البعض الآخر إلى ظروف داخلية تتسم بتعقيدات موروث التخلف ورواسب الثقافة الشمولية ، وهو موروث لا يمكن إنكار أو تجاهل تأثيره السلبي على مضاعفة كوابح النمو ، وإبطاء مفاعيل التجديد الديمقراطي.

مما له دلالة أنّ الشوط الذي قطعته العملية الديمقراطية منذ قيام الجمهورية اليمنية ، وبناء أول نظام سياسي تعددي في الثاني والعشرين من مايو ١٩٩٠م ، يؤشر على مسار ثابت ومتجذر للمشروع الوحدوي الديمقراطي بما هو مسار وطني نهضوي حضاري متعدد الأبعاد.

بوسع كل متابع محايد وموضوعي للمشهد الانتخابي الراهن الذي تتبارى فيه كافة الأحزاب والتنظيمات السياسية وقوى المجتمع المدني من أجل الفوز بالسلطة وتداولها سلمياً عبر الانتخابات الرئاسية والمحلية ، أن يلاحظ صعود ورسوخ الموقع المتقدم للتجربة الديمقراطية اليمنية قياساً على تجارب ديمقراطية أخرى في العالمين العربي والإسلامي .

لعل أبرز ما يميز المشهد الانتخابي الراهن هو المشاركة الفاعلة لمختلف الأحزاب السياسية في عمل ونشاط اللجنة العليا للانتخابات بوصفها الجهاز الفني الذي يتولى مهام إدارة وضبط العملية الانتخابية وفقاً للقانون، بالإضافة إلى التنافس المفعم بالحيوية والفاعلية والتعددية في قوائم وبرامج المرشحين للانتخابات الرئاسية والمحلية ، والتي تجسد هي الأخرى مستوى متقدماً من المشاركة الفاعلة والواسعة لمختلف ألوان الطيف الحزبي والسياسي في البلاد.

يزيد من حيوية المشهد الانتخابي الراهن ، حصول المرشحين المتنافسين في الانتخابات الرئاسية على نصيب وافر من التغطيات الاخبارية في مختلف وسائل الاعلام الرسمية والظهور اليومي في التلفزيون الرسمي الى جانب مشاركة كافة الأحزاب والتنظيمات السياسية من خلال اللجنة العليا للانتخابات واللجان الانتخابية الفرعية في توفير فرص متساوية للدعاية الانتخابية لكافة المرشحين المتنافسين من دون تمييز، وضمان حيادية المال العام والوظيفة العامة ووسائل الإعلام ودور العبادة والمؤسسات والمنشآت التعليمية والعسكرية.

لا ريب في أنّ السمات الإيجابية التي يتميز بها المشهد الانتخابي الراهن تضيف زخماً إضافياً إلى مفاعيل العملية الديمقراطية الجارية في البلاد منذ ستة عشر عاماً ، وهو ما جعل مساحة هذه العملية وعمقها أكبر من عمرها المتواضع ، ولعل ذلك يعود إلى أصالة عملية التحول نحو الديمقراطية التعددية التي تحققت بالتزامن مع تحقيق الوحدة اليمنية بوسائل سلمية وديمقراطية ، وبواسطة إرادة وطنية داخلية محضة ، وبعيداً عن أية إملاءات أو ضغوط خارجية ، الأمر الذي جعل من الوحدة والديمقراطية مكونين رئيسيين لأكبر عملية إصلاح سياسي وطني كان اليمنيون سباقين في تحقيقها والشروع في تنفيذها بإرادتهم الحرة ومن دون ضغوط أو مطالب خارجية.

ثمة مظاهر عديدة لرسوخ وتطور العملية الديمقراطية في اليمن وهو الرقم القياسي الذي وصل إليه سجل قيد الناخبين ، وهو رقم غير مسبوق في العالم العربي والاسلامي وربما في ديمقراطيات أخرى ، من شأنه أن يفتح آفاقاً واسعة للتغلب على مصاعب الديمقراطية ومعالجة تناقضاتها، وردم فجوة عزوف " الأغلبية الصامتة " عن المشاركة في العملية الديمقراطية على العكس مما تعانيه تجارب ديمقراطية عربية وعالمية تتسم بضعف نسبة المسجلين في كشوفات الناخبين قياسا الى اجمالي من يحق لهم التصويت في الانتخابات العامة !

وكما هو معروف فقد انتهت عملية تسجيل وقيد الناخبين والناخبات في خريف عام ٢٠٠٢ قبيل الانتخابات البرلمانية الاخيرة التي جرت في ابريل ٢٠٠٣ وسط حراك سياسي وجماهيري اتسم بالحيوية والفاعلية والإنجاز ، ولم يخل في الوقت نفسه من مناخ محموم تداخلت فيه ظلال التجاذبات والاستقطابات الحادة بين اللاعبين الفاعلين في ساحة التعددية الحزبية .

وفي الاتجاه نفسه انتهت قبل ثلاثة شهور عملية مراجعة جداول القيد وتسجيل الناخبين الجدد ممن بلغوا السن القانونية التي تؤهلهم لممارسة حقهم الدستوري في الانتخابات الرئاسية والمحلية القادمة ، حيث أسفرت العملية الأولى عن قيد وتسجيل سبعة ملايين ونيف من الناخبين والناخبات في عام ٢٠٠٢، فيما اسفرت العملية الثانية عن تسجيل اكثر من مليون ناخب جديد في العام الحالي ٢٠٠٦ .

ومما له دلالة عميقة ان المؤشرات الإحصائية قدرت اجمالي عدد الذين يحق لهم المشاركة في العملية الانتخابية بما يقارب تسعة ملايين ناخب وناخبة.. بمعنى أنّ حصول الغالبية الساحقة من الذين يحق لهم المشاركة في العمليات الانتخابية أرقام قيد و بطاقات الاقتراع.

صحيح أن البلاد تشهد في الطريق الى الانتخابات الرئاسية والمحلية حراكاً جماهيرياً مصحوباً بتجاذبات واستقطابات حزبية حادة في المجال السياسي للمجتمع المدني الذي انخرط بهمة ونشاط في هذه العملية ، وحصد في نهاية المطاف نسبة قياسية في سجل القيد ومشاركة تنافسية ساخنة للفوز بمنصب رئيس الجمهورية وعضوية المجالس المحلية في المحافظات والمديريات ، بيد أنّ البقاع الرمادية التي تركت بعض الظلال القاتمة على هامش السجل، كانت ضعيفة وغير قادرة على تسويد صورة المشهد وتطويق بريقه المدهش.

للدهشة هنا وجهان.. الأول يتمثل في حقيقة أنّ عملية القيد والتسجيل اكتسبت قوة دفع هائلة وعكست ما يختزنه المجال السياسي للمجتمع من ميول قوية نحو الديمقراطية التعددية ، وقدرات متنامية على ممارستها ، واستعداد لترسيخ تقاليدها ومراكمة المزيد من الخبرات والإنجازات التي يستحيل من دونها التخلص من رواسب الثقافة السياسة الشمولية ، وإعادة بناء السياسة في مجتمع مثقل بمصاعب النمو، ومحاصر، بالكوابح والعوائق التي تحول دون تطوره الاقتصادي والاجتماعي والثقافي.

الوجه الآخر الدهشة يتمثل في ذلك الحجم الهائل من التنافس الحيوي بين الأحزاب السياسية – في السلطة والمعارضة على حد سواء - ويتضح هذا التنافس بجلاء من خلال الاقبال الواسع على تسجيل الناخبين في قوائم القيد المدى الكبير لقوة الدفع التي أسفرت عن سجل قياسي وغير مسبوق في تاريخ الديمقراطيات الناشئة والحشود الهائلة التي تشارك في حملات الدعاية الانتخابية للمرشحين الذين يمثلون أحزابا وفاعليات سياسية كبيرة.

من نافل القول إن عزوف ما تسمى في الأدب السياسي بالأغلبية الصامتة من الناخبين عن المشاركة في عمليات القيد والتسجيل والانتخابات في بعض التجارب الديمقراطية العربية والاجنبية ، يشكل تحدياً حقيقياً أمام شرعية الخيارات والبدائل السياسية التي تصل إلى السلطة بواسطة الأغلبية.. فثمة ديمقراطيات ناشئة ومتطورة وعريقة يحتوي سجل القيد فيها على نسب أقل، ولا يتجاوز في أحسنها ٥٠٪ من إجمالي المواطنين الذين يحق لهم المشاركة في الانتخابات، فيما تبلغ نسبة المشاركين في الاقتراع أقل من ٥٠٪ من المسجلين الحائزين على بطاقات الاقتراع أو أكثر قليلاً ، وهي محصلة تؤشر على احتقان المجال السياسي في تلك المجتمعات، وانسداد قنوات المشاركة السياسية وخمول مفاعيل المجتمع المدني.. وفي نهاية المطاف تشكل تلك المحصلة خصماً من رصيد الديمقراطية وتقاليدها وثقافتها السياسية.

حقاً أنّه لمدهش أنّ يتجاوز سجل قيد الناخبين في بلد فقير ومحاصر بمصاعب النمو، فجوة عزوف "الأغلبية الصامتة" عن المشاركة في العملية الديمقراطية، وهو ما يشكل حافزاً لتعظيم مفاعيل قوة الدفع الكامنة في المجتمع ، باتجاه مواصلة ردم هذه الفجوة في الانتخابات الرئاسية والمحلية التي تشهد تنافسا مدهشا بين مختلف الاحزاب والفاعليات السياسية والاجتماعية في البلاد ، وإضفاء أكبر قدر من الشرعية على السلطة المنتخبة وتوسيع قنوات المشاركة السياسية للمجتمع المدني.

نقلاً عن/ صحيفة «٢٦سبتمبر»

أين الحب؟

د. إلهام مانع
elham.thomas@hispeed.ch

"أين الحب في عالمنا الاسلامي كما نراه يمارس اليوم؟" ذهلت من السؤال.

راجعته في عقلي، ثم تذوقته في فمي، وشعرت به مراً، فكدت أنفر.

نفرت من السؤال الذي طرحته أنا على نفسي.

كيف قفز السؤال إلى ذهني؟

خلال رحلة سفر بالسيارة أخذتني هذا الاسبوع من مدينة ريميني الإيطالية إلى مدينة ميلانو.

أربع ساعات سفر، رضيت طائعة أن أقضيها محبوسة في ذلك الصندوق المتحرك، لا لشيء إلا لأني قررت تقديم موعد عودتي إلى سويسرا.

استعجلت عودتي إلى عائلتي بعد أن أكملت التزامي بالمشاركة في ندوة ضمن إطار مهرجان "لقاء ريميني". وكان الحل الوحيد لتمكيني من ذلك هو السفر إلى ميلانو والإقلاع من هناك إلى زيورخ بدلاً من الانتظار ليوم أخر.

كانت أربع ساعات من السفر لم تضع هدراً.

في الواقع لم أشعر بالوقت أساساً.

ويعود الفضل إلى سائق السيارة ومرافقتي من المهرجان التي تولت ترجمة حديثه من الإيطالية إلى الإنجليزية.

كان الرجل محدثاً لبقاً.

كأنه شعر بثقل الوقت الذي سأقطعه محشورة بين أربعة أبواب معدنية، فأراد أن يخفف من وطأتها على نفسي.

أخذ يحدثني عن تاريخ المنطقة التي مررنا بها.

عن قرية قصر دي بولونيا التي نجت من الطاعون في القرن الرابع عشر، يقول لي ذلك مؤكداً، لأن السيدة العذراء، مشت حولها فباركتها بالحماية.

سألته إن كانت هذه أسطورة من أساطير التاريخ أم حقيقة، خاصة وأن السيدة العذراء على حد علمي لم تعش في إيطاليا. رد بأن هناك ما يثبت صحة ذلك.

أدركت أنه يؤمن بالمعجزات بعد موت أصحابها.

فلم أعلق.

ثم حدثني عن سيمفونية نهر المولداو – نسبة إلى أطول نهر في جمهورية التشيك – التي استمعنا إليها، ما ترمز إليه، نهر الحياة، ذلك الذي يجري في طريق بعض أيامه صعب وغيره يسير، كحياتنا، تجري دوماً في دربها غير عابئة بما نقوله عنها، حتى تصل بنا يوماً إلى الموت ... مستقرنا.

شعرت به مطمئنا، ومحباً، هو ومرافقتي الاثنان يؤمنان بالديانة المسيحية.

كان ذلك واضحاً من حديثهما.

وكلاهما كان يبحث جاهداً عن جسر يصل بيننا، بينهما وبيني.

جسر يقرب بيننا، ويجعلنا نقف على أرضية واحدة.

أرضية أحب أن أسميها الإنسانية.

لم يكن هناك نفور، أو خوف، أو فزع.

بل حب.

ثم انتبهت إلى السؤال الذي طرحته على نفسي "أين الحب في العالم الاسلامي كما نراه يمارس اليوم؟"

فزعت منه.

ثم صممت عليه.

وأسألكم لذلك أنتم أعزائي: "أين هو؟"

فأنا في الواقع لم أعد أراه.

أين حب الإنسان، حب الآخر، في واقعنا العربي والاسلامي السائد .. في زماننا الحاضر؟

حب الإنسان لمجرد كونه إنساناً.

لأنه ينتمي إلى الجنس البشري.

لأن الله خلقه، مثلي ومثلك.

جبله من الطين نفسه.

ونفخ فيه من الروح نفسها.

أبحث عنه عبثاً ذلك الحب.

فالصوت الذي نسمعه اليوم عالياً يقول لنا "لا تحبوا الآخر".

"بل أكرهوه".

"لا تجالسوا الأخر ثم لا تأمنوا جانبه".

"بل ألعنوه في سركم".

وتذكرت الضجة التي أثارها قرار وزارة الأوقاف المصرية في ٢١ أغسطس بإلزام أئمة المساجد بعدم الدعاء على اليهود.

بعض فقهائنا ثارت ثائرتهم معتبرين أن الدعاء على اليهود في المساجد "واجب شرعي يدخل في باب المعلوم من الدين بالضرورة".

"واجب شرعي" أن ندعو بالشر على الغير.

أي دعاء هذا بالله عليكم؟

ندعي على اليهود؟

اليهود كفئة بشرية تنتمي إلى ديانة محددة.

لا نتحدث هنا عن سياسة حكومة،

عن بشر نتحدث، بشر يؤمنون بديانة مغايرة.

نذهب إلى المساجد، وبدلاً من أن نتوجه إلى الله عز وجل بأفئدتنا، بدلاً من أن نتقرب منه بتطهير أرواحنا للحظات، نثلج صدورنا بسماع الأمام وهو يلعن أهل اليهود.

"الله يخرب بيوتكم".

"الله يلعنكم".

يردد أمام جموع المصلين بحرقة.

والله، ياللخزي، لا يستجيب.

ما الذي تركناه للمراهقين من بيننا؟

أعود إذن لأسألكم "أين الحب في عالمنا لإسلامي كما نراه يمارس اليوم؟ "

"حب الإنسان."

ضاع منا؟

أم أضعناه عامدين بعد أن عجنا الدين بالسياسة؟

أقحمناه في كل صغيرة وكبيرة من حياتنا.

وعندما فعلنا ذلك طمسنا وجهه الروحاني.

طمرنا التراب عليه، ثم دفناه.

فلم نعد نراه.

لم نعد نرى وجه الله المحب.

لم نعد نرى رحمته.

ولا غفرانه.

ولا النور الذي يشع منه.

ولا الحب أساس الإيمان.

بل نرى وجه غاضب، ساخط، متشنج، ومحبط، ياللأسى،

ونسمع حناجر صارخة متوعدة،

السنتها تزعق في أرواحنا، تقول وهي تنفخ "لا تحبوا"، "واكرهوا"" فإن الكره واجب شرعي".

* كاتبة يمنية مقيمة في سويسرا

أي شرق أوسط نريد؟!

أكرم البني*
akrambunni@hotmail.com

ربما يصح القول إن الحرب على لبنان، وما رافقها من تصريحات لمسؤولين أميركيين وزعماء إيرانيين، بدت أشبه باختبار تجريبي للصراع بين مشروعين تشتد المنافسة بينهما، للسيطرة أو تشارك السيطرة على المنطقة التي يصبو كل منهما إلى التفرد في رسم صورة مستقبلها، بما ينسجم مع مصالحه وأغراضه: شرق أوسط جديد خال من التطرف والإرهاب عند وزيرة الخارجية الأميركية كونداليزا رايس، أو خال من الصهيونية وأميركا عند الرئيس الإيراني احمدي نجاد.

المشروع الأميركي يمهر بطاقة مروره إلى المجتمعات العربية بختم الديمقراطية، مغازلاً توق الناس الى الحرية بعد مكابدة ومعاناة مزمنة من شتى صنوف القهر والاستبداد. لكن أصحاب المشروع باتوا يعرفون جيداً النتائج السلبية التي أسفرت عنها طريقتهم، حرباً أو سلماً، في خوض غمار الإصلاح والتغيير، وفي نشر شعارات الحرية وحقوق الإنسان، وكيف زادت في شروط عمل الديمقراطيين العرب صعوبة وتعقيداً. والأمر لا يرجع فقط إلى سمعة السياسة الأميركية، وانعدام الثقة بصدق نواياها ودوافعها بسبب احتلال العراق وما رافقه من انهيارات مروعة، أو بسبب الدعم غير المشروط للعدو الصهيوني وجرائمه، وأخرها مباركة القتل والتدمير العشوائي في الحرب على لبنان، وإنما يرجع أيضاً إلى تاريخ لم ينس حتى الآن، كانت فيه الولايات المتحدة حجر عثرة أمام أحلام الشعوب العربية وتطلعاتها نحو التقدم والازدهار.

في المقابل، يتوسل المشروع الثاني الإسلام، ويحمل راية القضية الفلسطينية في محاولة لاستمالة الشعور الشعبي الديني، وتغذية تيارات الإسلام السياسي لضمان التمدد والسيطرة. وإذا كان العزف على وتر معاناة الشعب الفلسطيني وما أحيق به من ظلم تاريخي قد أفضى الى مكاسب ملموسة في التعبئة والتجييش، ربطاً بالمناخ الذي خلفته مرارة التجربة الأيديولوجية القومية والهزائم المتعددة التي منيت بها، فإن ادعاء نصرة حقوق الإسلام والمسلمين لم تثمر الشيء ذاته، ربما بسبب الخصوصية المذهبية لإيران، أو بسبب الفشل المتواتر للإسلام السياسي بعد تسلمه السلطة في غير تجربة معاصرة .

طبعاً ما كان لهذين المشروعين أن ينفردا في الصراع على الشرق الأوسط لولا حاجة المنطقة موضوعياً لصياغة مختلفة بعد انهيار قواعد الحرب الباردة، ولولا الفراغ الكبير الذي وفره استمرار التخلف العربي والتردي على مختلف الصعد، والعجز عن التكيف مع ما حصل من مستجدات إقليمية وعالمية، ونجاح القمع والاستبداد في تحطيم القوى الحية وسحق دورها الواعد في المجتمع!

ولنعترف أننا نعيش اليوم في واقع لم يعد قابلا للاستمرار بالصورة التي هو عليها إلا بأن يجر خلفه مزيداً من البؤس والانحطاط! أو بعبارة أخرى، فإننا نعيش في منطقة تحتاج بالفعل الى أن تكون جديدة، وتحتاج تالياً الى إعادة صياغة علاقاتها وترشيد مكوناتها ومقومات تطورها، لكن ليس من زاوية إعادة رسم الجغرافيا السياسية، كما يعتقد البعض، أو نشر الفوضى وتأجيج الصراعات المتخلفة والمدمرة، بل من خلال المسارعة الجدية إلى بناء رؤية علمية بعيدة المدى، عمادها الثقة بدور الإنسان وقدرة المجتمعات الحرة على تحصيل الحقوق المسلوبة، ومواجهة تحديات التنمية وتبعات العولمة وشروط الاندماج في ركب الحضارة العالمية.

وهكذا، لم يعد مقبولاً بعد أكثر من عقد ونصف العقد من انهيار الدول الاشتراكية وسيطرة القطب الواحد الأميركي اتباع القواعد ذاتها التي أرستها الحرب الباردة، والعيش على أوهام توازناتها؛ مثلما لم يعد مقبولاً استمرار حالة الاضطراب التي تعانيها المنطقة وتستنزف قدراتها ومحفزات تطورها، وإهمال معالجة بؤر التوتر فيها، وفي القلب منها المعضلة الفلسطينية، فضلاً عن الاحتراب الداخلي في العراق. ويعني هذا ضرورة المسارعة إلى وضع حد للحروب وأعمال العنف، وفتح الباب أمام زمن جديد لا تسلب ثقافة الإرهاب ومظاهر القتل المنظم طعم الحياة فيه، أو يشوهه خطاب أيديولوجي يجد المعادلة المجدية في ممارسة السياسة هي القوة العارية، وإلحاق المزيد من القتل والتدمير في صفوف العدو لكسر إرادته؛ خطاب يقوم على استثارة العواطف، وإشعال متواصل لفتيل المواجهة، وكأن الغرض أن يظل المجتمع في حالة استنفار، أو يؤسر في وضع استثنائي يشغله عن مهامه التنموية ومشاكله الداخلية، ويسوغ المحافظة على الواقع القائم وثبات الامتيازات وعناصر الهيمنة والتسلط.

وبمعنى آخر، لم يعد مقبولاً تهميش دور الناس في الحياة العامة، وفصل مسارات التنمية والتحديات الوطنية عن المسألة الديمقراطية والحداثة السياسية، سواء من زاوية مفهوم المواطنة وبناء المؤسسات السياسية الدستورية والتمثيلية وإحلال قيم المشاركة، وسواء ببعدها المتعلق بالتوزيع العادل للثروة والاقتصاص من الفساد.

ربما هي ضرورة عمياء أو صدفة مؤلمة أن تبقى منطقة الشرق الأوسط محط تنازع بين مشاريع وأطماع خارجية اختلفت صورها وأشكالها على مر العصور، وربما هو قدرها أن تسعى الشعوب العربية في نهضتها إلى خط سبيل خاصة تجمع في نضال مركب مواجهة التحديات الخارجية والداخلية على السواء. وتالياً، يمكن القول إن الخطر العميق على مستقبل مجتمعاتنا يكمن في نجاح أي من المحورين أو المشروعين المتنافسين راهناً في احتواء المنطقة، أو تقاسمها وتكريس سيطرة خارجية أياً تكن على ثرواتها ومقدراتها، مما يستدعي الحذر والتنبه من الوقوع في فخ الانحياز أو الاصطفاف خلف الرؤية الأميركية أو وراء السياسة الإيرانية، فلا شك أنه قد آن الأوان، وربما آن منذ وقت بعيد، أن نعترف بأن مجتمعاتنا بلغت سن الرشد، وأنها تستطيع العمل لحسابها الخاص، وصياغة مشروع خلاصها المستقل، حتى لو بدا أشبه بحلم عند الكثيرين، والسير في طريق تنفيذه، مهما تكن هذه الطريق وعرة وقاسية!

والبديهي أن ما تطمح إليه الشعوب العربية وقواها الحية في معركتها من أجل بناء مجتمعات العدالة والديمقراطية، ومن أجل نيل حقوقها الوطنية وكسب فرصتها لدفع عملية التنمية والتحرر الاجتماعي والاقتصادي قدماً، يقف على مسافة واضحة وبيّنة من المشروعين الخارجيين المتناطحين اليوم في غير مكان من المنطقة، مسافة يفترض أن لا يحجبها تلاقي شعارات أحدهما مع بعض الأهداف الوطنية، كتحرير الأرض ونصرة النضال الفلسطيني، أو تقاطع دعايات الآخر مع المهام الديمقراطية وإشاعة الحريات واحترام حقوق الإنسان.

* كاتب سوري- دمشق

بلوتو المكّار يُحرج زغلول النجار!

د. خالد منتصر
khmontasser2001@yahoo.com

تعرض د. زغلول النجار لإحراج شديد فى برنامج اليوم السابع للإعلامى محمود سعد، فقد هاجمه د. أحمد شوقى إبراهيم ومعه د. مسلم شلتوت عالم الفلك المصرى حين تحدث د. زغلول فى التليفون وقال أنه قد سجل صوت النجم الطارق وهو صوت يشبه دوى المطرقة وهذا مما يثبت نظرية الإعجاز العلمى والفلكى، وبالطبع فند د. شوقى وعالم الفلك إدعاءات د. زغلول وكان من ضمن ردوده المفحمة إستحالة تسجيل الصوت فى الفضاء لأنه أساساً لاينتقل فى هذا الفراغ الذى ليس فيه هواء أصلاً فالسماء بها صمت تام، وكذب تجربة رائد الإعجاز وأثبت أنها مجرد فبركة وتلفيق على حد قول الضيوف، لأن تفسير كلمة الطارق الذى لايحتاج إلى كل هذه الحركات البهلوانية التى تلوى أعناق الكلمات هو تفسير بسيط، فالطارق هو كل مايأتى ليلاً أو هو مايلزم من الزيارة ليلاً ويسمى فى اللغة العربية كناية، ولم تفلح دفاعات د. زغلول عن نظريته الإعجازية وخرج من المعركة الفضائية خالى الوفاض يبحث عن شريط الكاسيت المزعوم الذى سجل فيه صوت النجم الطارق، وظننت أن هذا اللقاء التليفزيونى هو آخر الإحراجات لنظرية الفبركات، ولكن أتت الرياح بما لاتشتهى السفن، وجاءت الضربة القاضية من حيث لايظن ولا يتخيل، جاءت اللكمة "النوك أوت" من براغ بتشيكسلوفاكيا، حيث عقد إجتماع الإتحاد العالمى للفلك وعلوم الفضاء، طرد فيها ٢٥٠٠ عالم بقيادة الفلكى أوين جنجريتش كوكب بلوتو من زمرة كواكب المجموعة الشمسية، ولكن كيف فضح بلوتو تجارة الإعجاز العلمى؟، وكيف أحرج هذا القزم المكار د. زغلول وورطه وورط معه كل دعاة الإعجاز فى موقف لايحسدون عليه وأدخلهم فخاً محكماً؟، هذا ماستجيب عنه قصة بلوتو المكار ود. زغلول النجار الذى حاول إثبات الإعجاز العلمى من خلال سورة سيدنا يوسف وآية "إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين".

قصة طرد بلوتو وسحب ترقيته من كوكب إلى مجرد جرم سماوى برغم أنه لم يرتكب أى جرم، هى قصة تستحق الحكى لكى نعرف ماهو المنهج العلمى فى التفكير؟، وماهى نسبية العلم؟، وماهو خطر ربط الدين المطلق بالعلم النسبى؟، وهو ماحذرنا منه كثيراً حتى بح صوتنا وإتهمنا الدراويش بالكفر والزندقة لمجرد أننا دافعنا عن الدين الإسلامى ضد من يريدونه تجارة وبيزنس من دعاة الإعجاز العلمى.

حكاية بدأت فى مارس ١٩٣٠ وإنتهت فى أغسطس ٢٠٠٦ حين أعلن الفلكى الأمريكى كلايد تومباو إكتشاف كوكب بلوتو وضمه إلى كتيبة كواكب المجموعة الشمسية المبجلة، وإحتفى العالم بهذا الإكتشاف الذى تنبأ به عالمان آخران هما لويل وبيكرنج بناء على حسابات فلكية دقيقة بدون رؤية تليسكوبية مباشرة، وأقيمت الأفراح والليالى الملاح إحتفالاً بعقد قران بلوتو على المجموعة الشمسية، ولكن العلم لايعرف الزواج الكاثوليكى الأبدى، فأفضل تعريف العلم هو أنه القابل للتكذيب أو البطلان، بمعنى أنه عندما تكتشف نظرية علمية لابد أن يحاول العلماء بشتى الطرق إثبات كذبها وبطلانها، وكلما صمدت أمام هذه المحاولات وإجتازت كل هذه العقبات فهى نظرية علمية صحيحة وصادقة وحقيقية، ونسبية العلم تلك هى سر قوة العلم ومكمن حيويته، فالعلم علامة إستفهام مؤرقة تحاول طرق كل الأبواب للوصول إلى الحقيقة، ولايدعى أنه يملك كل مفاتيح وإجابات العالم، ولذلك فهو يحل مشاكلنا الدنيوية بنسبيته العلمية التى لاتحتكر الحقيقة ولاتخجل من هذه النسبية والتواضع، لأن من يقول أنا عارف كل شئ فهو لن يصل حتماً إلى أى شئ، وللتدليل على نسبية العلم لنقرأ نظرية نيوتن وتطبيقاتها على الأجسام ثم كيف عدلتها وطورتها بل أستطيع أن أقول نسفتها نظرية النسبية لأينشتين حين تعرف العالم على أجسام غاية فى الدقة كالإلكترون، أو غاية فى الضخامة كالكواكب والأجرام السماوية، وإحتاج إلى تفسير آخر أدى إلى تغير مفهوم الزمن نفسه، وماحدث ويحدث لنظرية الحركة والجاذبية حدث لكوكب بلوتو.

كما إتسعت الرؤية ضاقت العبارة " قالها الإمام الصوفى النفرى قديماً، والآن يقول العلم كلما إتسعت الرؤية بالتلسكوب ضاقت ونقصت الكواكب!، فتليسكوب هائل مثل تليسكوب "هابل "، إستطاع أن يرى ماهو أكبر من بلوتو، وإستطاع أن يرصد أيضاً موقع بلوتو ومكانته الضئيلة بين الكواكب، وحتى ماكان يعتبر قمراً تابعاً له مثل القمر "شارون " أصبح يتعامل معه على أنه جرم سماوى منفصل، والشروط الخمسة التى تحدد تعريف الكواكب الآن والتى كانت سبباً رئيسياً فى نفى بلوتو من جنة الكواكب هى وبدون تفصيلات علمية معقدة:

١- أن تكون مستديرة بأقطار كبيرة تتجاوز قطر بلوتو البالغ ٢٣٠٦ كم.

٢- تتمتع بحد أدنى من الجاذبية.

٣- عاكسة لضوء الشمس ولاتشع ذاتياً.

٤- لها مدارات ثابتة حول الشمس وليس حول أى جرم آخر.

٥- مركز ثقل الكوكب وقمره واقعاً تحت قشرة الكوكب وله حد أدنى من الكثافة مقارنة بكثافة كوكب الأرض.

ويتطبق هذه الشروط الصارمة تم تجريد بلوتو من رتبته الكوكبية، فعلى سبيل المثال وجد أن جرماً سماوياً كان يعامل على أنه "هايف " وهو" زينا" وجد العلماء أنه أكبر من بلوتو وتنطبق عليه الشروط وكذلك بعض الأجرام السماوية الأخرى، مما يؤكد أنه بخروج بلوتو سيحل محله كواكب أخرى سيتوالى تصنيفها وتدوينها.

د. خالد منتصر

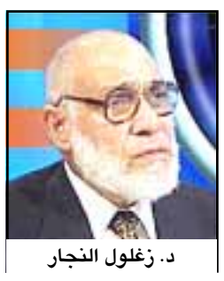

د. زغلول النجار

لم يكن زغلول النجار يتوقع مفاجأة إجتماع براغ وهو يكتب مقالاته الأسبوعية فى الأهرام فى نهاية فبراير وبداية مارس حين قال عن الآية الكريمة فى سورة يوسف " إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين" أنها حقيقة علمية لم يصل إليها العلم الحديث إلا فى عام ٢٠٠٣، وبالطبع إفتعل د. زغلول ترقيماً مدهشاً كى يصل إلى العدد "حداشر " بالعافية، فقد قال أنه حتى عام ١٧٨١ كان العدد هو ستة كواكب وهى عطارد والزهرة والأرض والمريخ والمشترى وزحل، ثم بعدها إكتشف كوكب أورانوس فأصبحنا سبعة، ثم فى ١٨٠١ ومن أجل فبركة الرقم إكتشف مايسمى بحزام الكويكبات مابين المريخ والمشترى وهى ناتجة عن إنفجار كوكب كان فى هذا المدار، إذن وصلنا إلى ثمانية، ثم فى ١٨٤٦ تم إكتشاف نبتون التاسع، ثم بلوتو العاشر، ثم كوكب "سيدنا" الحادى عشر SEDNA فى ٢٠٠٣، هكذا عد الكواكب فى مقال د. زغلول، ولكى يغلق الباب أمام إكتشاف الكوكب رقم ١٢ ويتم تستيف نظريته الإعجازية فقد قال "قد يحذر دارس من إمكانية إكتشاف كوكب جديد، ولكن على بعد أكثر من تسعين وحدة فلكية وهى المسافة مابين الكوكب الحادى عشر والشمس يتعذر على جاذبية الشمس الإمساك بأحد أجرام السماء الذى ينطبق عليه وصف الكوكب!!، بالطبع أثبت العلماء الألفين وخمسميه القابعين فى براغ أن أقل مايوصف به هذا الكلام أنه هراء، فقد أضيفت كواكب وستضاف كواكب أخرى إلى المجموعة الشمسية برغم أنف د. زغلول، وهنا تكمن المأساة والورطة.

الورطة التى أوقعنا فيها د. زغلول النجار بنظريته الإعجازية هى ربطه مابين الدين المطلق الذى لايعرف إلا الإجابات بالعلم النسبى الذى لايعرف إلا الأسئلة، الدين هو اليقين والعلم هو الشك، ولاداعى لخلط هذا مع ذاك، وإلا وقعنا فى فخ الشك الدينى نتيجة اللخبطة والإضطراب والقلق الذى يصنعه فينا د. زغلول والإعجازيون، وأستطيع أن أقرر أننى وكل من ينكر نظريات الإعجاز العلمى ويقول أن القرآن كتاب هداية وليس كتاب بيولوجى وجيولوجى وفلك ويؤكد على أن إعجاز القرآن فى أفكاره الثورية التى ستعيش وليست فى نظرياته العلمية التى ستتغير.

صدقونى عندما ينكر أحدكم اللعبة الخطيرة التى تسمى تجارة الإعجاز العلمى فهو حتماً يدافع عن الدين وعن قدسيته، وأيضاً يدافع عن العلم وتحرره وجسارته، ولو أن كل دين يختبر صدقه بمدى تنبؤاته العلمية لإعتنق الناس الديانة الفرعونية مثلاً لأنها حتى الان لاتتنبأ فقط بل تتحدى البشر فى التحنيط وبناء الأهرامات والإحتفاظ بألوان المعابد.... الخ، الناس تؤمن... ليس بعدد النظريات العلمية فى دينها وكتابها المقدس ولكن بكم الأفكار والرؤى والقيم والمبادئ التى تتضمنها تلك الأديان من تسامح وعدل ومساواة وإعمار فى الأرض.... الخ، الناس تؤدى الطقوس الدينية.. ليس لأن هذه الطقوس تخدم الجهاز الهضمى والكلى كما يقولون عن الصوم وإعجازه العلمى، ولكنهم يؤدونها لأن الله أمرهم بذلك، الناس تتبع أوامر إلهية وتمتنع عن نواهى ليس لأنها تحتوى على الدودة الشريطية كما قال الإعجازيون عن سبب تحريم لحم الخنزير، ولكنهم يمتنعون لأن دينهم أمرهم بذلك وإلا فليمتنعوا عن الدجاج تجنباً لإنفلونزا الطيور وعن البقر هرباً من جنون البقر وأيضاً من الدودة الشريطية الأخرى.... الخ، فالإعجازيون يحولون الدين إلى مطية لبيزنس الإعجاز العلمى، ويتاجرون به فى السوبر ماركت ومؤتمرات الإعجاز التى تبيع الوهم للناس وتجعلنا نحن المسلمين نتخيل أننا الأفضل والأقوى لأن التقدم الغربى ماهو إلا بضاعتنا وإكتشافاتنا المدونة فى كتبنا، ونظل أسرى هذا الوهم، ونظل واقعين تحت أثر التنويم الإعجازى المغناطيسى المخدر، نحسب تقزمنا عملقة، وتخلفنا تقدماً، وحرماننا تعففاً، والحقيقة المخزية المؤسفة المحزنة أننا لانتقن حتى صناعة أستيكة أو قلم رصاص أو حتى بوصلة لتحديد قبلة صلاتنا فى عصر صواريخ الفضاء والهندسة الوراثية، إنها مأساة أن يرجم من يدافع عن الدين ضد تجارة الإعجاز العلمى، وأن يتوج بطلاً من يتاجر بالدين ويحوله إلى ريالات وديناريات ويجعل الإعجاز العلمى فريضة سادسة بجانب كالصلاة والصيام، ولله فى خلقه شئون، وحسبى الله ونعم الوكيل.

* بروفسور مصري في جراحة الأوعية الدموية